كتب مذكرات وتحليل سياسي للنظام العالمي

في كتابه "جزيرة الحرية الخضراء" الذي نشر تباعا في صحيفة الثورة اللبنانية، كتب الفريق عفيف البزري عن الأوضاع في سورية ولبنان منذ جلاء الجيوش الأجنبية عنهما عام 1946 بحيث كان البلدان طليقين من كل قيد تعاقدي مع دول الإستعمار، وخاليين من كل قاعدة للمستعمرين، مما أقلق المستعمرين جميعا: قديمهم وحديثهم. فكانوا يحاولون بكل ما لديهم من جهد، مباشرة ومن خلال الرجعيات المرتبطة بهم، على ضبط القطر السوري بالدكتاتوريات المتعاقبة، والرجعيات والإنتهازيات المتعاونة مع المستعمرين مساندي الصهاينة.

تحدث في الكتاب عن نظام الإحتكار العالمي الذي تتزعمه أميركا التي كانت منهمكة بكليتها بوضع الأسس والدعامات الأولى للإمبراطورية العالمية المتعددة الأطراف والموحدة بزعامتها بتحقيق الأمور التالية:

-الأخذ بيد البلاد الرأسمالية الأوروبية المنتصرة والمهزومة في الحرب العالمية الثانية ومساعدتها للنهوض وبناء ما دمرته هذه الحرب فيها. والتغلغل أيضا في اقتصادها والهيمنة عليها سياسيا وعسكريا بالإستفادة من ظروفها الكارثية حينذاك.

أ- تكنيس الشكل القديم للإستعمار، ودفع المستعمرات وأشباه المستعمرات (أي بلاد ما يسمى حاليا بالعالم الثالث) الى الإستقلال السياسي في حدود النظام الرأسمالي الإحتكاري العالمي بوجهه المتخلف، النظام الذي يكون بزعامة الإحتكارية الأميركية، ويكون تابعا لها.

ج- المباشرة بإقامة الجهاز الإمبريالي العالمي الذي يتألف من مختلف الأحلاف العسكرية والسياسية في أوروبا الغربية، وأميركا اللاتينية، والشرق الأوسط، وجنوب شرقي آسيا، وإقامة شبكة تخريب وتجسس عالمية تغطي سطح الكرة الأرضية بقيادة مركز معقد التركيب يعمل تحت الإشراف المباشر لمجلس الأمن القومي الذي يرأسه رئيس الولايات المتحدة الأميركية في البيت الأبيض،

ونشر القواعد العسكرية الأميركية في بحار ودول العالم الرأسمالي المتقـدم منـه والمتخلف. وتوزيع الأساطيل الحربية في جميع بحار العالم.

لست بصدد ترداد ما جاء في الكتاب الذي انتهى بقيام الوحدة بـين مـصر وسوريا.. فمن أراد أن يعرف تاريخ سوريا النضالي في الخمسينات، والنهـوض الكاسح للحركات الوطنية ضد المستعمرين القـدماء فـي المـستعمرات وأشـباه المستعمرات فليقرأ هذا الأثر الذي لا يزال مخطوطا وأنزل على الإنترنيـت مـع مجموعة الكتب التي نشرها الفريق في كتب أو في الصحف. فهو ليس مـذكرات ولكنه دراسة وتحليل للأوضاع العالمية من وجهة نظر إنـسان تقـدمي صـادق جريء في قول الحق، يرى بأن تعاون الإنسان وتكامله وتكافله أجدى عليه مـن الناحية العملية، وليس فقط من الناحية الأخلاقية المثالية، من التنافس والتعـارض واستعباد بعضه بعضا في عصر أصبحت فيه الحروب تكلف الإنـسان غالبـا أو مغلوبا بسبب تطور أسلحة الدمار تطورا رهيبا قد يقود الى فناء الإنسانية.

لقد أوفى الفريق في كتب أربعة تنهج نفس النهج في التحليل والدراسة وكتابة المذكرات من وجهة نظر "شاهد على عصره" التي كان يرددها كلما طلـب منـه الأصدقاء كتابة مذكراته. ففي اعتقاده أن المذكرات الخاصة ترضي فضول الناس ولكنها لا تؤثر في حياتهم كما يؤثر فيها الوعي الحقيقي لما يدور بهم من أحداث. وهذه الكتب هي:

1- التحرير في قفص المستعمرين
2- سورية جزيرة الحرية الخضراء
3- الناصرية في جملة الإستعمار الحديث
4- العسكرية الأميركية سياج العبودية المعاصرة

* * *

الجانب الإنساني

أما أنا فانني كزوجة رافقته أربعين عاما فسأكتفي بالجانب الإنساني منه وبما سمعته منه وسجلته في حينه في دفاتري، وجمعته فيما بعد في كتابي الذي لم ينشر "أحاديث نزهة صباحية". وبمواقف منه لا يمكن أن تمحى من الذاكرة مهما طال عليها الزمن.

حين تزوجني عفيف في أواخر عام 54 لم أكن أعلم شيئا عنه وعن المـدى الذي سيصل اليه في مقبل الزمن، ولا هو يعلم عني شيئا.. القدر والمصادفة لعبا دورا في لقائنا معا. في العام الذي سبق زواجي كنت قد نجحت في الفحص الذي تقيمه جامعة لندن للطلبة الخارجيين في مركز الجامعة الأميركيـة، وكنـت قـد أنجزت روايتي بستان البرتقال وهي عبارة عن ذكرياتي في فلسطين وأضفت اليها رسائل متبادلة بيني وبين أختي التي فقدتها في ميعة الصبا ففجعتني، ولم أتحمـل فقدانها فانفجر شريان في صدري وبقيت سبعة أيام بلياليها وأنا أنفث دمـي وأنـا قاب قوسين أو أدنى من الموت.. وفي تلك اللحظات المصيرية تشكلت قناعـاتي وايماني ومبادئي، وعاهدت ربي أنني ان قدرت لي الحياة سأكرس قلمي لقـضية فلسطين التي كانت ضمير الأمة العربية بأسرها، فكنت في السن التي تتلهف فيها الفتاة للزواج لا أرغب الاّ أن أضع على الورق كل ما شاهدته عيناي وما سمعته أذناي قبل أن يتداركني الموت.

هذا ما كان يجلد موهبتي الأدبية المبكرة حين ذهبت الى دمشق لأنشر بستان البرتقال، ولأرافق المعلمات لتصحيح أوراق الإمتحان.. التقيـت المقـدم عفيـف البزري فكان ما بيني وبينه حبا من النظرة الأولى، وبعد بضع لقاءات في معرض دمشق الذي كان يفتتح لأول مرة، وبضعة أحاديث عن نضاله الفلسطيني توثق ما بيننا وقررنا الزواج.

ما كنت يومها أعرف أنه سيصبح رئيسا للأركان، ولا هو يعرف أنه سيقود في مقبل الزمن الوحدة بين مصر وسوريا.

كان يوم زواجي قد أقيم في الصالة الكبيرة في بيتنا في اللاذقية على رابيـة الطابيات، والذي اقتصر على الأهل. وكانت الصالة مقـسومة بالبرافانـات الـى

غرفة ضيوف وجلوس وطعام، ولها بابان من الجانب الشرقي والغربي الذي يطل من بعد على بحراللاذقية.

كان المذياع في غرفة الجلوس في أوسط الصالة، وبعد انتهاء مراسم الزواج وانصراف المأذون كان الجميع منشغلين بتناول الحلوى والشراب، فانتبهت الـى عفيف يترك الجمع الى حيث المذياع فلحقت به بثوب عرسي الفضفاض، وجلست قربه أصغي الى ما يجري.

المذياع ينقل مباشرة خبر محاولة اغتيال عبد الناصر في مصر، وبالرغم من استمرار إطلاق النار عليه كان يقوم ويقعد ويستمر في خطابه الحماسي.. أذكـر تعليق عفيف حينذاك:

-"الدجال! انه يدبر مسرحية للقضاء على فئة معينة يلصق بها تهمة التـآمر على اغتياله.. فهل يصدق كائن من كان أن إنسانا يتعرض لرصاص حقيقي يقف معرضا صدره للرصاص ويستمر في خطابه؟

* * *

محاولة الإغتيال

كانت محاولة اغتيال عبد الناصر المدبرة هي لتصفية حركة الإخـوان فـي مصر وإعدام زعمائها وزج أعضائها في السجون بالألوف.

يقول مايلز كوبلاند في كتابه لعبة الأمم:

"وفجأة قام الإتحاد السوفييتي بشن حملة عنيفة علـى صـفحات الـصحف الشيوعية ضد ناصر، ونعت أعوانه بالإستبدادية والظلم ورفع لواء الـدفاع عـن منظمة "الإخوان المسلمين" وامتدحها على أنها "أكثر الفئات المـصرية مناهـضة للإمبريالية، وأجدرها بالثقة". وعندها قام رئيس فرع وكالة المخابرات المركزيـة في مصر بالإتصال بواشنطن، وطلب منها أن تقنع الإسـرائيليين بأخـذ زمـام المبادرة لتحطيم منظمة "الإخوان المسلمين" ولكن بطريقة غير مباشـرة. وهكـذا أخذت الإذاعة الإسرائيلية تظهر على طريقتها الخاصة قدرة منظمـة "الإخـوان المسلمين" الضخمة على الإطاحة بنظام ناصر".

كان من أهداف الولايات المتحدة الأولى إخلاء ساحة الشرق الأوسـط مـن الإنجليز والفرنسيين والتفرد بنهب الثروات النفطية من المنطقة، ثم إقامة منظمـة دفاع إقليمية ضد المد الشيوعي لا ينفذ منه السوفييت، ولكن الخطر الثـاني كـان لايزال بعيدا بينما الخطر الأول كان مباشرا وملحا.

وأرسلت مبعوثيها والمؤلف أحدهم، ممن تدرّبوا على إحداث الإنقلابات الـى مصر، قلب العالم العربي الذي بدأت الأمور تتفاقم بينه وبين الأميركيين وتتزايـد شقة الخلاف يوما بعد يوم. وحاولوا دفع فاروق للقيام بثورة سلمية، ولكن بـدا أن الملك يتردد في اتخاذ بعض الإجراءات الأساسية في خطة الإنقلاب التي وضعها "كيرميت روزفلت" وهو حفيد فرنكلين روزفلت الذي كان رئيسا للولايات المتحدة، وكان موظف الإستخبارات الأميركية ورئيس بعثة الإنقلاب. ويقول كوبلند عـن فاروق بأنه كان مشغولا أكثر في هوايته في العربدة منه في تنفيذ خطة الإنقلاب.

ان السبب الرئيسي في عدم صلاحية فاروق بالإضافة الى صفاته الشخصية هو أنه كان ينتمي الى الطبقة ذاتها التي كان عليه أن يحارب مـصالحها لنجـاح الإنقلاب. ففي البلد المتخلف تتشابك مصالح الإقطاعيين والبرجوازية الـصناعية والتجار الكبار، ولا يكون هناك حد فاصل فيما بيـنهم. وكانـت هـذه الطبقـات بغالبيتها مرتبطة المصالح مع الإنجليز. فكان من الأفضل دفع الطبقة التي تليهـا الى السلطة. وبسبب غياب طبقة وسطى في مصر، كان لابد من الإعتماد علـى جهاز عسكري بيروقراطي يهيمن ويسحق أية مقاومة تقف في طريقـه ويكـون أقوى من أي حزب وأية حركة بمفردها.

"وقبل أربعة أشهر من قيام انقلاب الضباط الأحرار كانت البعثة الإنقلابية قد وجدت في عبد الناصر الشخصية التي يمكن لها أن تلعب دورها بنجـاح ضـمن مخططات الإمبريالية الأميركية، فلقد كان بالإضافة الى شخصيته الجذابـة مرنـا يمكن التحدث معه بأي موضوع ولو كان الصلح مع إسرائيل" على حد قول مايلز.

"وما أن قام الإنقلاب حتى أغرق النظام الجديد بالمـساعدات مقابـل عـدم التعرض لإصدقاء أميركا الممتازين في المنطقة"

* * *

الشيشكلي

لم يحب عفيف عبد الناصر أبدا! فلديه حساسية تجاه الحكم العسكري مماعاناه وأخوه الأكبر الذي كان عقيدا في الجيش إبان حكم الشيشكلي. فبالرغم أن الشيشكلي كان وأسرته صديق العائلة، وأنه حارب وعفيف معا في جيش الإنقاذ في فلسطين، وأنه يوم الإنطلاق جاء الى البيت ليصطحب عفيف، وليقبل يد والدته التي كانت تجود بثلاثة من أبنائها لإنقاذ فلسطين ويطلب منها أن تدعو لهم بالنصر، الاّ أن الشيشكلي عندما أصبح ديكتاتور سورية لم يوفر أحدا من الوطنيين، ولو كانوا من أصدقائه لو عارضوا سياسته التي التزم بها في تلك المرحلة، ونسي تضحية صلاح الأخ الأكبر لعفيف حين ذهب الى الصحراء الليبية للحصول على الأسلحة التي تركها رومل بين الألغام لإنقاذ فلسطين.

ذكر لي عفيف أن خبيرا ألمانيا انفجر فيه لغم، وكان صلاح معرّضا للموت في كل خطوة يخطوها، أما عفيف فكانت مدفعيته هي التي قامت بقطع طريق يافا-القدس، ولقد سلم كل المواقع سليمة للجيش العربي حين أمر جيش الإنقاذ بمغادرة فلسطين..

وهو لايزال يقص علي كيف أرسله الشيشكلي الى فرنسا للدراسة كي يبعده عن البلد بينما أقال أخاه من عمله في المكتب الثاني واعتقله في بيته، ولاحق المالكي الذي كان يختبئ عند جار لنا في اللاذقية وهو صديق لنا، بعثي درس الطب البيطري في ألمانيا وزوجته ألمانية، هو الدكتور كمال مشارقة.

سقط حكم الشيشكلي إبان دراسة عفيف في فرنسا، وهو لا ينسى أبدا منظر الشيشكلي وقد أسرف في الشراب في أحد المقاهي، يقوم ويقعد ويقول "أنا دكتاتور سورية!" ورواد المقهى الفرنسيون يتغامزون ويضحكون عليه، فجاء عفيف وأمسك بيده وذهب به في سيارته الى حيث يقيم في أحد الفنادق. حدثني عفيف بهذه القصة حين أصبح رئيسا للأركان، وركبت معه لأول مرة مع الصغيرن سلام ويوسف سيارة الشيشكلي المصفحة التي أوصى عليها الشيشكلي في ألمانيا، وهي واحدة من ثلاث سيارات صنعت على نموذج سيارة موسوليني.. قال:

- تقدمي يركب سيارة فاشستي! وأردف:

- نصف مليون إنسان في دمشق خرجوا الى الشوارع لإسقاطه، فرأى أن أسلم ما يفعله هو الهرب حتى لا تقوم مذبحة بين الجيش والشعب.

وأعاد علي القصة مرة أخرى حين طلب منه رفاقه في الجـيش أن يعتلـي السلطة حتى يرتفعوا معه كما فعل عبد الناصر في مصر.. كـان الأمـر سـهلا بالنسبة اليه، فبعد سلسلة المؤامرات التي كانـت تـدبرها القـوى الإسـتعمارية، والمحاكمات التي كان يرأسها وتكشف شراسة الهجمة الإمبريالية الأميركية علـى سورية، كان الجيش معه. وما كان الأمر يتطلب منه أكثر من تلفون للقوتلي ينهي فيه الحكم المدني، ويستلم العسكر الحكم.. يقول لي "ليس من ضمانة لاستقلال بلد الاّ الحكم الديموقراطي.. ان واجب الجـيش أن يحمـي الديموقراطيـة، ويمنـع الديكتاتورية العسكرية، فليس أسهل من حرف الـديكتاتوريات لتكـون أداة قمـع للشعب وطموحاته في أن يكون حرا مستقلا، ووسيلة لنهب ثروات المنطقة لصالح المستعمرين الجدد!.

* * *

كان عام 53 هو العام الذي دخلت فيه أميركا سوريا ولبنان لـتملأ الفـراغ الذي أحدثه غياب المستعمرين القدامى عن هذين البلدين، بعد أن نجحت في إسقاط حركة مصدق التحررية في ايران، وبدأت فيه مؤامرات مخابراتها المركزية، وهو العام الذي مارست فيه حرف الإتجاه التحرري فيهما، وبدأت فيه الحرب البـاردة بمجيء الثنائي (ايزنهاور-دالس) في الشرق الأوسط، وسمعت فيه من المراقـب الأميركي في الجامعة الأميركية، الذي وقف قربي طويلا يقرأ أوراقي عن عبـد الناصر لأول مرة بأنه مؤهل ليكون زعيم الأمة العربية.. كانت أميركا في ذلـك الحين تتسلل الى حركات التحرر في الوطن العربي، وتقيم دكتاتوريـات تلتـزم بمخططات استعمارها الجديد، وتتظاهر بالحياد والسلام والتعاطف مع طموحـات الشعوب في التحرر لتكنس من الساحة الإستعمار القديم لتحل محله..

كيف لي أن أعرف حينذاك أن ذلك الشاب الذي يتجاوز الثلاثين بقليل، والذي عرّفني على نفسه بأنه أستاذ للتاريخ، وقال لي متبجحا بأنه يصنع التاريخ، فظننت بأنه يمزح، وحدثني بأنه قام بزيارات الى معظم بلدان الـشرق الأوسـط وقابـل

رؤساءها: العراق والمغرب ومصر والسعودية، وأنه يقوم بدراسة تاريخية لنيل الدكتوراه ولهذا يتعلم اللغة العربية، وأطلعني على مقال كتبه بالعربية لينشر في صحيفة لبنانية باسم مستعار، فصححت له كثيرا من الأخطاء اللغوية، وأخبرته بدوري أنني أكتب القصة القصيرة للإذاعة السورية، وأحيانا أكتب باللغة الإنجليزية لأدرب لغتي لأنني أطمح أن أنشر قصصي في صحف أميركية، أنه أحد مبعوثي دالس الى المنطقة. فبعد سنوات طويلة عرفت ذلك حين شاهدت صورته في كتاب للصحفي المصري أبو ذكرى "الزهور تدفن في اليمن" وعرفت دوره التخريبي في حرب اليمن..

كثيرا ما شككت بأمره، وأن الإسم الذي يعرف به هو ليس اسمه الحقيقي.. جرت بيني وبينه مراسلات ذلك العام، أنا أصحح له مقالاته، وهو يعلق على مجموعة القصص التي أكتبها بالإنجليزية.

بعد انفصال الوحدة وعودتنا الى دمشق من بلغاريا حيث كنا لاجئين، وقع بيدي كتاب "حبال من رمل لولبر كرين ايفرلاند" وبدا لي أنه نفسه "بروس كوندة" فأحاديثه نفسها، ولقاءاته مع زعماء العرب هي نفسها التي سمعتها منه، وطريقته بالمبالغة والتبجح هي نفسها، وعقليته المحبة للظهور وأن يكون له أثر في الحياة إن خيرا وإن شرا هي نفسها.. لقد عزز شكوكي فيه ما قرأته عنه في كتاب "الزهور تدفن في اليمن" وما قرأته فيما بعد في كتاب "لعبة الأمم" لكوبلاند، فايفرلند وكوبلاند ذهبا معا في عام 53 وحرفا الخط التحرري للضباط الأحرار في مصر..

* * *

زوابع في سوريا

يقول محمود رياض الأمين العام السابق للجامعة العربية في الشهادة التي يدلي بها للوطن عن قيام وسقوط دولة الوحدة المصرية السورية منذ ثلاثين عاما، أنه حين ذهب الى سوريا في شهر فبراير 1955 ليعمل كسفير لمصر هناك لم تكن العلاقات بين القاهرة ودمشق "سمنا على عسل" وصحيح كان النزوع الى الوحدة مطلبا رئيسيا في سوريا وجزءا من تراثها التاريخي، لكن هذا النزوع كان

متجها ناحية الشرق باعتبار أن سوريا والعـراق والأردن تمثـل جميعـا وحـدة جغرافية واحدة. وبالنسبة لمصر كانت هنـاك حـساسيات الأحـزاب والـساسة السوريين تعطي صورة قاتمة عن وضع أسمته الحكم العسكري في القاهرة، بعـد تجارب سورية مريرة مع الحكم العسكري هناك، كما أثار الإخـوان المـسلمون الذين كانوا أصحاب نفوذ في دمشق، الزوابع في الشارع السوري ضد جمال عبد الناصر بعد محاكمات الإخوان، في القاهرة.. وكان طبيعيا العمل على خلق تيـار سياسي يتعاون مع مصر في سياستها التي كان عبد الناصر قد طرحهـا والتـي كانت تتمثل في مقاومة الأحلاف الأجنبية، وإقامة جبهة عربية موحّدة، الى جانب العمل على توثيق الروابط في الميادين غير السياسية بين حكومتي وشعبي البلدين، لكن الأحداث التي شهدتها دمشق متلاحقة ومندفعة بأسرع من كل تصور خـلال ثلاث سنوات فقط، جعلت الوضع في النهاية مختلفا وتجاوز كل المهام والجهـود، حيث أقدم البلدان على إقامة أول مشروع للوحدة العربية في التاريخ الحديث.

* * *

حلفاء أميركا

ولا بد لنا أن نصنف أميركا وحلفاءها في الشرق الأوسط قبل أن نستعرض خوافي اللعبة بالترتيب:

1- إسرائيل، المشروع الإستعماري، والأداة التنفيذية لبرجوازيتها التي تعيش غالبا خارج البلاد والمرتبطة بأوثق الـروابط بالإمبرياليـة الأميركية منذ مؤتمر بلتيمور عام 1942 وانتقال ولاء الـصهاينة من الإنجليز الى الأمريكيين. وبسبب وجود إسرائيل الإستيطاني، فان ارتباط الشعب في إسرائيل ببرجوازيته الخارجية هي رابطـة وثيقة لا تشبه وضع أي شعب من الشعوب المستقرة على أرضها بحقها المشروع مع برجوازيته. فانفصام الشعب في إسرائيل عـن الإمبريالية التي أوجدت وضعه الشاذ العدواني هو انهيار تام لكيانه المستقل يؤدي بالتالي الى ذوبانه في شعوب المنطقة كمـا ذابـت

فلول الصليبيين الذين فضلوا البقاء في البلاد العربية بعد هزيمتهم واستعربوا واندمجوا في المنطقة.

2- الركائز العربية في المناطق النفطيـة، وبرجوازيتهـا التجاريـة البترولية التي تسيطر على مكامن الثروة النفطية وتحتكر بيعهـا، والتي جعلت منها الشركات الأميركية ذات ثروات أسطورية. هذه البرجوازية التجارية التي نمت فجأة مع اكتشاف البتـرول كانـت بسبب تخلفها الصناعي مضطرة لـربط مـصالحها ومـصيرها بالإمبريالية الأميركية. وهي لا تشبه أية برجوازية عرفها التاريخ لأنها ليست سيدة نفسها، وهـي تابعـة شـاءت أم أبـت للنظـام الإحتكاري الإمبريالي، بوجهه السلبي، وكانـت تثـرى بحرمـان شعوب المنطقة من ثرواتها الطبيعية ومن تطورهـا الإقتـصادي والإجتماعي، وتقف حجر عثرة دون وحدة الأمة العربية، وكانت سببا غير مباشر لكل مآسيهم، وعلى رأسها تشريد شعب فلسطين، فمصالحها الأنانية وتقوقعها كانت تشل إرادة أمتنا، وتحرم عليهـا الإنطلاق الى أهدافها في التحرر والوحـدة والتـصنيع، وتتـرك المجال واسعا أمام دكتاتوريات عسكرية غير منتمية لشعوبها تقود المصير العربي.

3- الممالك غير البترولية، وكان من الـسهل انتقالهـا مـن الـولاء للإستعمار القديم الى الولاء للإستعمار الجديد لقاء المساعدات.

كانت أميركا قد كسبت الى جانبها كل دول الشرق الأوسـط عـدا سـوريا ولبنان.. ولقد عرضت على العقيد عدنان المالكي كما جاء في محاضر المحاكمات المساعدات الأميركية فرفضها فقال له السفير حينـذاك "سـنجعل مـن سـوريا جواتيمالا ثانية" مما اضطر وكالة المخابرات المركزية لقتله عن طريق فئة عميلة من الحزب القومي السوري..

* * *